17ème année No 868

Le Caire - 20—2— 1950

الرسالة

مجلة أسبوعية للآداب والعلوم والفن

ARRISSALAH

Revue Hebdomadaire Litteraire Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

الادارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

بدل الاشتراك عن سنة
١٠٠ فى مصر والسودان
١٥٠ فى سائر الممالك الأخرى
ثمن العدد ٢٠ مليما

الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

العدد ٨٦٨ « القاهرة فى يوم الاثنين ٣ من شهر جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ٢٠ فبراير سنة ١٩٥٠ — السنة الثامنة عشرة »

على محمود طه

حياته وشعره

للأستاذ أنور المعداوى

— ١٠ —

أشرت فى مقدمة هذه الدراسة إلى أن شاعرنا المصرى كان أشبه بكتاب مفتوح . أستطيع أن أقول لك وأنا مطمئن ، إننى قد قرأته كله ... شعره على ضوء حياته ، وحياته على ضوء شعره ، ناحيتان تؤلفان هذا الكتاب الذى قرأته ، وعشت بين سطوره ، وخرجت من هذه السطور بآراء عرضتها على الذاكرة فما اعترضت ، وعلى الضمير فما أنكر ، وعلى موازين النقد فما اختلفت مع أصوله كما أفهمها ومناهجه .

وقلت لك أيضاً إننى قد درست حياة على طه النفسية ، ودرست آثاره الفنية .. درستهما على طريقتى التى أومن بها وأدعو إليها كلما حاولت أن أكتب عن أصحاب المواهب أو كلما حاول غيرى أن يكتب عنهم : مفتاح الشخصية الإنسانية أو مفاتيحها أولا ، ومفتاح الشخصية الفنية أو مفاتيحها ثانياً ، والربط بعد ذلك بين الشخصيتين لتنفذ إلى أعماق الحقيقة فى الحياة والفن ، ومدى التجاوب بينهما منعكساً على صفحة الشعور المعبر عنه فى كلمات .

وقلت لك مرة ثالثة إن الذين لم يعرفوا هذا الشاعر ولم يطلعوا على دخائل نفسه وآفاق حياته ، يستطيعون إذا لم ينزعوا عن الألفاظ أثوابها النفسية ، أو يجردوا الأخيلة من ظلالها المعنوية ، أو يفرقوا بين الصور وبين وشائج اللحم والدم ... يستطيعون إذا لم يلجأوا إلى شىء من هذا كله أن يعرفوه حق المعرفة من خلال شعره ! لقد كان شعره مرآة صادقة لهذا الوجود الذى أحاط به ، لأنه كان إنساناً صادقاً فى صحبته لتلك المرآة : لم يحاول يوماً أن يقف أمامها بوجه غير وجهه ، ولم يحاول يوماً أن يلقاها بملامح لونتها المساحيق أو اختفت حقيقتها وراء الأقنعة !

وقلت لك مرة رابعة إنه كان يمثل الوضوح فى الفن ، وقيمة الوضوح فى الفن هو أنه يتيح للدارسين أن يطمئنوا على مواقع أقلامهم كلما قطعوا مرحلة من مراحل الطريق ... لا غموض فى المقدمات يدعو إلى الشك فى النتائج ، ولا ضباب على سطح النظار يحول دون الرؤية إذا التمستها العيون !

هذه بعض فقرات مما قلناه من قبل ، ونزيد عليها الآن وجهات نظر أخرى تدور حول مشكلة الغموض والوضوح فى الشخصية الفنية والإنسانية .. إن الرجل المغلق القلب فى الحياة مغلق القلب فى الفن ، وإن الرجل المعقد النفس فى الحياة معقد النفس فى الفن ، ولا خلاف فى هذه الحقيقة المستخرجة من ألوان التجارب ولا جدال ! وكل ما يصادفك من غموض وشذوذ

وانحراف عن كل ما هو مألوف ومعروف هنا ، يمكنك أن ترده إلى صوره الماثلة وأحواله الشابهة ولحظاته المطابقة هناك : شخصية فنية مبهمة ومضطربة وغير مفهومة فى هذا الجانب، تقابلها شخصية إنسانية تصطبغ بكل هذه الصبغات وتتصف بكل هذه الصفات فى الجانب الآخر . ومهما حاول الفنان أن يظهر أمام الناس بوجه أرجوانى غير وجهه الأصفر ، أو بقلب إنسانى غير قلبه المقفر ، فلن يستطيع أن يخدع بعض العيون المستشفة لما وراء الطلاء من حمائق ، ولا بعض الآذان الراصدة لما بين الجوانح من خفقات . وهذه هى اللحظة الحاسمة فى حياة كاتب التراجم كلما حاول أن يدرس واحداً من أصحاب الفن ، سالكا كل الطرق التى يمكن أن تدفع به إلى الهدف المرجو وتقذف به نحو الغاية المنشودة . وليس كل هدف يسير البلوغ وليست كل غاية قريبة المنال ، وما دام الأمر كذلك فلا مناص من استخدام علم النفس الأدبى وتسليط أضوائه على كل فجوة تتعذر فيها الرؤية حين يكتنفها الغموض ويلفها الظلام !

واستخدام علم النفس الأدبى من ألزم الأمور فى كل دراسة تريد أن تأمن الزلل فى التأويل وأن تتقى الخطأ فى التعليل ، وأن تتجنب كل متحدر فى طريق التشخيص والتشريح وإصدار الآراء والأحكام. ومع ذلك فهناك شخصيات مهوشة السمات مطموسة الحدود معقدة الطباع ، ترهق الدارسين حين يضعونها تحت مجهر التحليل النفسى وتكلفهم من الجهد والصبر والمثابرة فوق ما تحمل طاقة الأحياء . وفى الكفة المقابلة شخصيات أخرى واضحة سهلة التناول مبسوطة الغور مكشوفة الأعماق ، ينفذ إليها الدارسون حين يضعونها تحت المجهر نفسه دون أن يصيبهم عنت أو إرهاق .

من هذه الشخصيات الأخيرة شخصية هذا الشاعر المصرى على محمود طه، ومن تلك الشخصيات الأولى شخصية ذلك الشاعر الفرنسى شارل بودلير . ومن الذى تناول بودلير بالدراسة النفسية فأجهده وأرهقه وأعنته بما يشبه الدوار ؟ إنه الكاتب والفيلسوف الفرنسى جاك بول سارتر ... وعلى الرغم من أن سارتر قد وصل من وراء دراسته لبودلير إلى ما لم يصل إليه فى رأينا كاتب تراجم من قبل ، فقد خرج من هذه الدراسة وهو مكدود الأنفاس يخيل إليك أن جبينه قد تصبب بقطرات من العرق !

لقد كان بودلير فى رأى الحق إنساناً غير مفهوم ولا مهضوم ، ومع ذلك فقد حاول سارتر ما وسعته المحاولة أن يفهمه ويهضمه ، وأن يقدمه إلى الناس فى صورته الشاذة المعقدة وقد زايلها أكثر ما فيها من شذوذ وتعقيد ... وهكذا تفعل الدراسة النفسية حين ترفع السجف المدلاة على نوافذ الشخصية المغلقة ليندفع الضوء إلى شتى الجوانب والأركان !

وأين هى عناصر الشذوذ فى هذه الشخصية البودليرية الغريبة الأطوار ؟ هى فى تلك النواحى الإنسانية المتباينة التى لا تكاد تجتمع فى منهج واضح محدد يلم شعثها أو يؤلف بين ما فيها من شتات . لقد كان بودلير رجلا يفتش عن الآلام فى كل مكان ، ويسعى إليها سعياً متواصلا ليثور عليها آخر الأمر تلك الثورة المكبوتة العاجزة التى لا تدفع شراً ولا تدرأ خطيئة ... كان مثالياً بينه وبين نفسه ، ولكنها المثالية القاصرة على عالم الذهن وحده لا تكاد تتعداه . هو فى « وجوده الذهنى » إنسان مترفع عن كل ما يخدش الكرامة ويشين الخلق ويهبط بالسمعة إلى حمأة الموبقات، وهو فى « وجوده الواقعى » إنسان غارق فى لجج الإثم ضال فى متاهات الغى متخبط فى ظلام الوزر والمعصية . يدعو إلى الشىء ولا ينفذه ، ويرسم الطريق ولا يسير فيه ، ويضع لحياته خط سير هو أول المنحرفين عنه والخارجين عليه ... يحب الوحدة ويتوهم فى ظلالها راحة نفسه ونعيم دنياه ، ولكى يظفر بها فلا بأس من أن ينفر منه الناس وأن يبغضهم فيه ، ولا سبيل إلى ذلك إلا بأن يرمى شخصه بأقبح التهم ، وينعت خلقه بأشنع النعوت ، ولا ضير من أن يشيع عن نفسه أنه قتل أباه وانحدر من الشذوذ الجنسى إلى أدنأ بؤره وأحط مهاويه هذا كله ليحقق لنفسه تلك الوحدة المنشودة التى يخلو فيها إلى هواجسه بعيداً عن دنيا الناس ...

ومع ذلك فما أكثر ما يضيق بهذه الوحدة ويفزع من أشباحها الرهيبة ويفر من ظلالها الخانقة ! وهو ، ذلك المخلوق الذى يسمو « بأفكاره » إلى مدارج العلاقة الجنسية النظيفة ، تراه يهبط « بأفعاله » إلى أقذر ما يمكن أن تلحقه هذه العلاقة بإنسان ... تراه يتصل بإحدى العاهرات ذلك الاتصال الشائن الذى يخرج منه بأخبث الأمراض وأمدح العلل ، ثم لا يحاول أن يقصد إلى طبيب ليلتمس لجسمه المنهك أى وسيلة من وسائل البرء الذى

يعقب العلاج ! وهو ، ذلك الرجل العاجز عن تصريف أموره ، المشلول الحركة في معركة الحياة ، يسعى عن طيب خاطر إلى إيجاد من يشرف عليه ويرعاه ، حتى إذا وجد «مجلس العائلة» أو مجلس الوصاية ليشرف على هذا الرجل الذي يفر من المسئوليات الضخام وغير الضخام ، تراه يثور على هؤلاء « الجلادين » الطغاة الذين يذيقونه الذل ويسومونه خسف العذاب ! وهو ، ذلك الفنان اللامع الذي كان يتطلع إلى أن يظفر بمكانه بين الخالدين من أعضاء الأكاديمية الفرنسية ، تراه يعبر كل درب يمكن أن يباعد بينه وبين المكان الخالد . وأعجب العجب أنه كان ينشد من كل قلبه مثل هذا الإخفاق ! وهو ، ذلك الشاعر الجهير يخرج للناس يوماً ديواناً من الشعر يطلق عليه « أزهار الشر » ليقف بسببه في ساحة القضاء . ترى أكان يهدف من وراء هذا الشعر إلى مؤازرة الذين ينادون بمذهب « الفن للفن » ، أم كان يهدف إلى شيء آخر تتردد أصداؤه بين جنبيه وترسب في قرار سحيق ؟ أغلب الظن أنه كان يحب أن يكون منبوذاً من الناس تلاحقه اللعنة في كل عمل من أعماله الأدبية والإنسانية ... وإلا لما تعمد أن يطالع الناس بهذا الشعر الذي عرضه للادانة من جانب القضاء الفرنسي ، وهي إدانة مادية ومعنوية !

هو إذن في رأي سارتر رجل مضيع عاجز سهم يحرك يديه في شتى الاتجاهات ليثير من حوله الزوابع والأعاصير ، حتى إذا هبت عليه من كل ناحية وعصفت بكيانه وأودت بوجوده وقف حيالها مكتوف اليدين ... رجل عاش ولكنه لم يستطع أن يفسر لنا هذه الحياة التي عاشها ولا أن يكيف لنا هذا الوجود الذي خلق فيه رجل كون مزاجه بنفسه واختار مصيره برضاه ، وخانته القدرة على أن يخرج من أخطائه وآثامه بمذهب يحدد ذاتيته في زحمة الوجود أو يبرر مكانه في غمار الحياة. هذه الشخصية العجيبة الغريبة المتقلبة تحتاج إلى مفتاح يعالج أبوابها المغلقة على فنون من الطلاسم والأسرار ... وها هو سارتر يحاول أن يقدم إلينا هذا المفتاح .

بودلير الذي كان يفتش عن الآلام كان يريد أن يتعذب ، والدليل على ذلك مستخلص بوضوح من أخباره وآثاره ، من أخباره الخاصة وآثاره الفنية ... كان يسعى إلى صهر روحه في بوتقة الألم والعذاب ، وكان يحلو له أن يتأوه كلما أحس في نفسه حاجة إلى الثورة . كان يبغي أن يضطهد نفسه ليكون اضطهاده لنفسه عقاباً لها ، عقابا على عجزه وضياعه وما اقترف في حقها من أخطاء وآثام . أكان ذلك من جانبه لوناً من العقاب الذاتي الناتج عن تغلغل النزعة الدينية المسيحية بين جوانحه كما ذهب إلى ذلك بعض النقاد ؟ إن سارتر ينبذ هذا التفسير المتهافت الذي لا يستطيع أن يقف على قدميه ، لأن هناك أدباء أشربت نفوسهم تلك النزعة الدينية منذ المولد وخلال النشأة والتربية ثم ساروا ردحاً من الزمن في نفس الطريق الشاذ الذي سار فيه ، ومع ذلك فما أبعد الشقة بينهم وبين بودلير في لقاء الحياة بمثل ما لقيها به من عقاب للنفس واضطهاد للذات!

إن المسألة إذن ليست مسألة تلك النزعة الدينية من قريب ولا من بعيد ، ولكنها مسألة مركب النقص ومركب التعويض ... رجل كان يشعر في أعماقه أنه لا وجود له أو أن وجوده كان أشبه بالعدم ، ومن هنا راح يلتمس شتى السبل ليقنع نفسه أو ليخدعها بأنه موجود . وهذه الخطوط المتنافرة التي كانت تحدد اتجاهات مصيره في الحياة ، تعود آخر الأمر لتلتقي في نقطة ارتكاز وجودية عمادها الكبرياء ... كبرياء الذات المهزومة !!

وما أشبه جوانب الشخصية البودليرية بعدد من الغرف النفسية التي تفتحها كلها بمفتاح واحد : غرفة للألم ، وتسلك هذه إلى غرفة أخرى للعذاب ، وتسلك هذه إلى غرفة ثالثة للعقاب ، وتسلك هذه إلى غرفة رابعة للسخط والثورة، وتسلك هذه إلى غرفة خامسة للكبرياء ... أعني أنه رجل يريد أن يجد نفسه لأنه تائه مضطرب ، وهذا هو الطريق: بحث عن ألوان الشذوذ حتى اكتظت بها حياته، وحين تحقق له ما يبتغيه بدأ يتعذب، ثم طاب له أن يتخذ من هذه المرحلة معبراً إلى العقاب الذاتي الذي يتيح له أن يتبرم ويثور ، وفي هذا تحقيق لكبريائه ، وجوهر تلك الكبرياء الموهومة آهة حانقة على المجتمع ساخطة على الوجود ... لتشعره بينه وبين نفسه بأنه موجود !!

هذه هي خلاصة رأي سارتر في شارل بودلير ... ومنها يتضح لك أن الكاتب الفرنسي قد أجهد نفسه كل الجهد ليصل إلى أبعد أغوار هذه الشخصية القلقة المعذبة ، بعد أن طاف بنظره

الثاقب بين ما خلف صاحبها من أوراق ورسائل ، وما ترك من أخبار ونوادر ، وما نشر من آثار فى الشعر والنثر ، وبعد أن راح يجمع بين أطرافها المتنافرة ويوفق بين أحوالها المتناقضة ... تلك الشخصية التى لا تكاد ترضى حتى تسخط ، ولا تكاد تحب حتى تكره ، ولا تكاد تقبل حتى تدبر ، ولا تكاد تثور حتى تذعن ، ثم تتخيل بعد هذا كله أن فى الاستعلاء شيئا من العزاء ! ومن هذه الخلاصة يتضح لك أيضا أثر الدراسة النفسية فى تناول الشخصية الفنية ، ذلك التناول الذى يعرضها لك عارية من كل ثوب من أثواب الغموض والابهام ! ... ونحن حين نقدم إليك هذا النموذج النادر من نماذج أدب التراجم ، فإنما نقدمه لنستشهد به على أن التعقيد بقدر ما يطبع صاحبه بطابعه ويسمه بميسمه فإن الوضوح من شأنه أن يقوم بمثل هذا الدور فى مثل هذا المجال !

ولقد كان الوضوح كما قلنا لك لازمة من لوازم شاعرنا المصرى فى كل فترة من فترات حياته وكل وجهة من وجهات فنه ، ولك أن تعده أول مفتاح يهيىء لنا أن نضع أيدينا على منافذ شخصيته الأدبية والإنسانية ، دون أن نلجأ إلى الفروض التى تضع الشىء موضع الاحتمال فى أن يكون حقيقة من الحقائق أولا يكون ... ولقد كان على طه واحدا من هؤلاء الذين يفتحون القلب على مصراعيه أمام الخلص من الأصدقاء ، حتى ليخيل إلى من يعرفه منذ شهور أنه يعرفه منذ أعوام وأعوام . كان واضحا فى فرحه كما كان واضحاً فى حزنه ، وكان واضحاً فى سره كما كان واضحاً فى جهره ، حتى لو أنه حاول أن يصمت لكان صمته فنا من الكلام ، أو حاول أن يكتم لكان كتمانه ضربا من البوح والإفضاء ! ومن هنا كانت حياته على لسانه سلسلة من الأحاديث وكانت فى شعره سلسلة من الاعترافات ... واستمع إلى هذا « الاعتراف » فى موضعه من الصفحة الثالثة والثلاثين من « شرق وغرب » ، وهو حديث ينبع من قلب أبيض كزهرة الحقل البيضاء :

إن أكن قد شربت نخب كثيرات وأترعت بالمدامة كأسى
وتولعت بالحسان لأنى مغرم بالجمال من كل جنس
وتوحدت فى الهوى ثم أشركت على حالتى رجاء ويأس
وتبذلت فى غرامى فلم أحبس على لذة شياطين رجسى
فبروحى أعيش فى عالم الفن طليقا والطهر يملأ حسى
تائها فى بحاره لست أدرى لم أزجى الشراع أو فيم أرسى
فى قلب كزهرة الحقل بيضاء عنها السماء من كل قبس
هو فيثارتى عليها أغنى وعليها وحدى أغنى لنفسى
لى إليها فى خلوتى همسات أنطقتها بكل رائع جرس

* * *

كم شفاه بهن من قبلاتى وهج النار فى عواصف خرس
ووساد جرت به عبراتى ضمك يوما منه وإطراق أمسى
أيهذى الحذور ! أنوارك الحمراء كم أشعلت ليالى أنسى
أحرقتهن ! آه لم يبق منهن سوى ذلك الرماد برأسى !

هذا شعر صادق كل الصدق ، وأصدقه ذلك الوساد الذى جرت به العبرات ... ولابد لك من أن تقف معنا طويلا عند هذا البيت من هذه القصيدة الاعترافية ، لأن فيه مفتاحا رئيسياً يفصل بين فترتين من حياة الشاعر : فترة تحفل بالدموع وفترة تمج بالبسمات ، الأولى فترة الأمس أو ما قبل الثلاثين ، والثانية فترة اليوم أو ما بعد الثلاثين ... وها هو ذا يعترف بأن يومه يضحك لمنظر العبرات فى حين يأسى لما الأمس ذلك الأمس المعبر عنه بالإطراق ! وفى الفصل المقبل نحدثك عن هاتين الفترتين من حياته ، وأثرهما فى خلق مزاجين متباينين كل التباين فى نطاق الشخصية الفنية والإنسانية ! .

(يتبع)

أنور المعداوى

من الأدب الفرنسى

قصائد وأقاصيص

للأستاذ أحمد حسن الزيات

مجموعة من أروع القصص القصيرة وأبلغ القصائد المختارة لصفوة من نوابغ كتاب فرنسا وشعرائها .

وثمنه ٢٥ قرشاً عدا أجرة البريد